إنعاش الذات

نظرت إلى مرآتي فإذا بي أرى وجهاً هزيلاً وعينين ذابلتين
وشعراً أبيض لونه، هرمت فجأة بلا زمان ولا مكان
تُرى ماذا حل بي؟
غدوت جسداً بلا روح ذبلت أزهاري، واصفرت أوراقي و تصلبت أغصاني أصبحت كشجرة هامدة من سنين... لا أوراق تكسو جذعها الكالح، ولا بلابل تبني فوقها أعشاشاً، الماء يتدفق من تحتها و هي لا تشرب... دموعي نشفت و أصبحت غليضة على العينين، انتزعوا أحلامي و سلبوا بسماتي، كتاب حياتي صار ثقيلاً على كاهلي، أريد أن أمحو منه بعض الصفحات...
ولكن هيهات فما دبغ ههنا لا يمكنه أن يمحى حتى يلج الجمل في سنم الخياط، أحس باختناق ثم تَوَجُّس ثم صرخة ثم بكاء، جلبت حبلاً وأعددت مشنقتي

عسى أن أحرر ما تبقى من وجداني، وفي آخر لحظات غفلتي تذكرت أمي، وكم كابدت بسببي، و تخيلتها و هي تلطم حول كفني، فتحت عقدة مشنقتي وهرولت إلى غرفتي وأقفلت الباب بإحكام، لا أعلم كم بقيت على تلك الحالة لربما أياماً أو شهوراً... كنت سجين ذاتي ولا أدرك متى سيتم تحرير روحي، لم يعد جسدي يتحمل طغيانها و ظلمها فأعلن التمرد و ابتغى الفناء، ضغطت الدماء على شراييني و انخفض منسوب هرمون السيتورين والأنسولين في خلايا دمي، كما هَمَّت شعيبات رئتي بالانسداد جراء سفن النيكوتين الراسية على ضفاف شاطئ البلازما...

ذعر أهلي لتدهور حالتي لاسيما بعد تضخم عضلات جسدي، اصطحبوني إلى العديد من الأطباء لتشخيص عِلَّتي البعض قال إني في حالة متقدمة جداً من الاكتئاب النفسي والآخر زعم أنه عندي رهاب ما بعد الصدمة، بعد العديد من الزيارات المتاتلية والعقاقير المتنوعة، يئس أهلي فلم يزد هذا إلا تدهوراً

في حالتي، سلموا أمرهم إلى الله ودعوه مخلصين أن يكشف عني السوء،

لَجَّ بي الشَّوق إلى ملامح وجهي، فقد أقبلت سابقاً على تهشيم كل المرايا الموجودة داخل منزلي، فتشت درج مكتبي لعلي أجد صورة قديمة لي تفكرني بما كنته، وجدت أوراقاً بيضاء وعلبة حبر وقلماً منكسراً، أدوات كانت تستعملها أمي لنسج رسائلها لي وأنا في غربة سجني...

بحثت عن قلم حبر آخر لأخط به بعض الكلمات لكن بلا فائدة، تذكرت بلبل أبي القابع في حديقة منزلنا، أسرعت إليه وأخذت من جناحه ريشة ذهبية مقابل حريته من قضبان قفصه القزوردي، ثم عدت إلى غرفتي وشكلت سمفونية راقصة بين حروفي وكلماتي:

تموت الذات قبل الجسد أحياناً

عندما يموت كل شيء جميل فيها

تفنى...

عندما تقطع شرايين أحلامها، مرادها وتمنيها
تزهق روحها...
عندما يغادر الحب أراضيها
تقضي نحبها...ثم تزول...
حين يحكم عليها بالمؤبد داخل جدران يأسها
فيا دهر ماذا صنعت فيها؟
ويا جسد ألم تلج في شوقها؟
لا تجزعي... ولا تهيعي بصوتِ مهلكك
سيأتي من ينعشك...
ثم يخلصك...
ثم يحررك من غيبات سجنك
سيعود نبضك...
وسوف تبعثين من جديد
فأبشري...
وتهللي...
ثم اغتبطي...

قرأت ما حَبَّرَت ربما عشرات المرات وفي كل مرة أحّس بانشراح وطمأنينة، صارت ريشتي وعلبة الحبر وأوراقي البيضاء لا تفارقني البتة، رويدًا رويدًا خرجت من غرفتي وأصبحت أحرّر كتاباتي فوق سطح منزلنا، تحت خطوط أشعة الشمس نهاراً وتحت بريق ضوء القمر ليلاً،

بعد شهور ليست بكثيرة تخلصت من وحدتي وتم فك أسري من قضبان ذاتي، تم إنعاش نفسي ورجع جسدي إلى حالته الطبيعية.

تغيرت ذاتي وطلبت أن أتجاوز عنها، تصالحت معها واستطعت بفضل قلمي تطويرها وإحياء الجانب الخير فيها، وضعت لنفسي أهدافاً عديدة وأهمها أن يكون لقلمي رسالة وأمانة وأن يكون بلسماً لمن مر بحالة مثل حالتي....

والآن أنا في طريقي لأصبح من أشهر كتّاب تنمية الذات في بلدي.

****